الصورة التشبيهية وأثرها في إنتاج الرمز

اعداد

حسن سعيد محمد

باحث بقسم اللغة العربية،

كلية الآداب،جامعة بني سويف

اشراف

أ.د شوقي زهرة

أستاذ البلاغة والنقد

قسم اللغة العربية،

كلية الآداب،جامعة بني سويف

تمهيد

يُعد التشبيه أكثر الألوان البيانية دورانًا على ألسنة الأدباء والبلغاء حتى صار مجال فخر بين المتحدثين وعُد مقياس التفوق والشاعريةوالتفاضل بين الشعراء؛ لذا أطنب أهل البلاغة في تعريفه وتقسيمه وتوضيح دلالاته وأسراره التي تمنح النص الأدبي الجمال والبقاء . ولأن التشبيه هو :(الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه)([1]) فقد حدد العلماء أركانه حيث يتكون التشبيه من (المشبه – المشبه به – أداة التشبيه– وجه الشبه) وبهذا يصبح التشبيه هو : لمح صفة أوصفات مشتركة بين المشبه والمشبه به حتى وإن لم تكن هناك أداة التشبيه لأن قوام الصورة التشبيهية هى المشبه والمشبه به . ويكون التشبيه ب (بيان أن شيئا أو أشياء شاركت غيرها في صفة أو أكثر ،باداة هي الكاف أو نحوها ملفوظة أو مقدرة ، تقرب بين المشبه والمشبه به في وجه الشبه .)([2]) وهذا يبعد مصطلح التشبيه عن المطابقة أو المماثلة كما أن التشبيه لايقف عند حدود التشابه الشكلي فقط بل لابد من أن ينقل التتشبيه الأثر النفسي الذي يجمع بين أطراف الصورة التشبيهية

(وأما فائدة التشبيه من الكلام فهي أنك إذا مثلت الشيء بالشيء فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه أو التنفير عنه ألا ترى أنك إذا شبهت صورة بصورة هي أحسن منها كان ذلك مثبتا في النفس خيالا حسنا يدعو إلى الترغيب فيها وكذلك إذا شبهتها بصورة شيء أقبح منها كان ذلك مثبتا في النفس خيالا قبيحا يدعو إلى التنفير عنها وهذا لا نزاع فيه.) ([3])لأن التشبيه ليس زينة لفظية أوشكلية بل هو محور يقوم عليه النص ويتطلبه السياق فهو يسهم بصوره المختلفة في نقل المعنى وتوضيحه كما أنه يعمل على إضافة مسحة جمالية على النص تجذب المتلقي (لأنّ الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني المحتجبة في الأستار حتى تبرزها وتكشف عنها)([4])بمعنى أن التشبيه يأتي حاملا للمعنى عن طريق صوره المختلفةفينقل بما يتضمنه من إيحاءات الجو النفسي للنص ككل فلا يتوقف على حالة المشبه أوالمشبه به فقط فهو عملية تفاعلية تتم عن طريق الألفاظ بدلالاتها مع السياق العام للنص لتتضافر وتتفاعل هذه المقومات لترسم لنا صورة كلية للنص تنصهر بداخله كل الصور الجزئية كما أن التشبيه يسهم في الكشف عن الدلالات المتوارية خلف الأستار عن طريق استدعاء هيئة وصورة

[1] – الصناعتين– العسكري–ج1–ص239

[2] – بلاغة عتيق– 256

[3] – المثل السائر– ابن الأثيرج1–ص378

[4] – الكشاف– الزمخشري– ج3– ص455

المشبه به.ويخاطب التشبيه النفس كما يخاطب العقل (فالصورة الفنية من التشبيه هي تلك التي نحس فيها بعاطفة الشاعر ووجداناته ومشاعره خاصة إزاء ما يصوره أي أنها هي تلك التي ينجح الشاعر أو الأديب في توظيف عناصرها إيحائيا بحيث تنقل للمتلقي شعوره المتميز ورؤيته المنفردة)([1])

ولأن القرآن الكريم نزل بلغة العرب فقد سار على نهجهم فجاراهم في بلاغتهم وتفوق عليهم واتبع طرقهم ووسائلهم في التعبير فعمد النص القرآني للتشبيه فاستخدمه في كافة القضايا الحياتية فعرض التشبيه لإثبات الوحدانية والبعث وعرض مشاهد القيامةوأحوال المؤمنين والكافرين كما تناول التشبيه القرآني أحوال الدنيا وصورتها لينفر من التعلق بها . وقد استمد القرآن تشبيهاته من الطبيعة بجبالها وسهولها ومياهها ونباتها والواقع الإنساني وجاءت التشبيهات القرآنية موافقة للغرض العام للنص . فالتشبيه وسيلة فنية يلجأإليها القرآن بغرض استنطاق مضمون النص وسبر أغواره عن طريق تحقيق صورة المشبه في الذهن .أي أن التشبيه يعمل على مد جسور التواصل الذهني والنفسي والفكري بين الصورة التشبيهية والمتلقي بحيث تنساب الدلالات والإيحاءات فليس التشبيهات القرآنية نقلا للمعاني المجردة أووصفا لروابط شكلية فهي (لم تقف عند مجرد تسجيل وجوه الشبه المادية بين الأشياء، بل تجاوزتها إلى المماثلة النفسية، وتعمقتها حتى أضفت عليها حياةً شاخصةً وحركة متجددة، فانقلب المعنى الذهني إلى هيئةٍ أو حركة، وتجسمت الحالة النفسية في لوحة أو مشهد.

وليس هذا فحسب ؛بل يبرز جمال التشبيه القرآني ما فيه من إبداع في العرض ، وجمال في التنسيق ،وروعة في الظم والتأليف، وجرس في الألفاظ يدل على صورة معانيها.)([2]) فالنص القرآني لا يعتمد على التشبيه لكونه إطار شكلي أومقارنة تتم بين اثنين، بل لكونه ضرورة فنيةً يتطلبها السياق ويستدعيها النظم والصياغة ، فالتشبيه وإنْ كان وسيلة فنية تضفي جمالا وبيانا يجذب المتلقي للنص لكنه في نفس الوقت ضرورة يتطلبها المعنى من أجل توصيل الدلالات وتوضيح المضمون.ولهذا يكون المعنى في التشبيه (ليس مجرد علاقة أوفكرة سابقة على صورته ،بل هو مجموعة الإيحاءات والدلالات الفنية الخاصة التي لا توجد

[1] – محاضرات في علم البيان –حسن طبل – 131

[2] – الصورة الأدبية في القرآن– صلاح عبد التواب –ص45

إلا بوجود تلك الصورة ، ولاتنبثق إلا عن شكلها اللغوي الخاص ، فالصورة الفنية هي وسيلة خلق وإبداع لاوسيلة كشف أو توضيح فحسب)([1])

حركية التشبيه المائي في القرآن وأثره الرمزي

يمثل الماء البنية الرئيسية التي يعتمد عليها القرآن في إثبات الكثير من القضايا العقائدية والحياتية حيث يعتمد النص القرآني على الماء من خلال تقديمه من خلال صورة فنية رائعة تهدف إقرار العبودية لله وإثبات الوحدانية كما تتعرض الصورة التشبيهية المبنية على الماء لإثبات قضية البعث تلك القضية الحياتية التي ينكرها الكافرون .

ولأن التشبيه يُعد نوعا من التعبير غير المباشر عن المعاني والأفكار بالتالي فهو يسهم في إضاءة النص القرآني ويجعله مليئا بالإيحاءات والرموز وهذا ما نجده ماثلا في التشبيهات المائية الحافلة بالدلالات والمعاني .حيث يقوم التشبيه بالمشاركة في الوصف (بين المعنى الحسي والمعنوي الذي يصور به، إذ تتماهى اللفظة ما بين معناها المباشر والمعنى الذي تخرج إليه بدلالة السياق من غير أن يكون هناك ما يرجح أحد الاستعمالين على الآخر.)([2]) ولايخلو التشبيه المائي في نفس الوقت من عرض الجانب النفسي حيث أنه يسمح بنقل الجانب النفسي بين المشبه والمشبه به وهذا ما سنلحظه من خلال تحليل بعض التشبيهات المائية التي تتعرض لأثر الماء في إنتاج الرموز لنعرف سبب اختيار الماء في عرض القضايا الدينية مثل القدرة والبعث ونعرف خصوصية تعاطي القرآن مع الماء .

1- قال تعالى :(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.)([3])

جاءت هذه الأية في سياق إثبات قدرة الله ووحدانيته مع عرض قضية البعث التي ينكرها الكفار في صورة حسية تتمثل في إرسال الرياح التي تبشر بالرحمة والسكينة حيث تقود السحب أمامها إيذانا بسقوط المطر (الماء) الذي يحمل في طياته البشرى والأمل والحياة

[1] – محاضرات في علم البيان – حسن طبل– 121 ، 122

[2] – ري الظمأن– 38

[3] – سورة الأعراف –57 .

الجديدة والذي يمهد في الوقت نفسه توضيح قدرة الله على إحياء الموتى يوم القيامة . فهذه الصورة الفنية الرائعة المرتكزة على بنية التشبيه جاءت لتعرض قضية عقلية وهي البعث في صورة حسية تتمثل في أثر الماء في إحياء الأرض وإخراج الزروع والثمار(ففي المشهد نرى إرسال الرياح، والسحاب المتحرّك، والمطر الهاطل، والنبات الطالع، والبلد الميت. وهذه الأطراف أو الأجزاء متفاعلة في داخل السياق لتكوين مشهد منظور، يؤدي وظيفة فنية ودينية معا. ونظام العلاقات بين عناصر المشهد المنظور واضحة في السياق، فالرياح تسوق السحاب الثقال، لتهطل الأمطار فوق الأرض المجدبة، فتنبت الزروع، وتخرج الثمار منها فالعلاقة بين عناصر المشهد قوية، إنها علاقة السبب بالمسبب، والمقدمة بالنتيجة، لإثبات معجزة الحياة بعد الموت.)([1])

وقد اختلف المفسرون حول دلالة الماء في هذه الصورة التشبيهية حيث قامت مفردة الماء بنشر الدلالات داخل النص القرآني لما لها من تأثيرها المعهود وتنوع رموزها فالصورة تقوم على بنية التشبية كالأتي:

المشبه : البعث يوم القيامة. المشبه به : نزول الماء وإحياء الأرض الجرداء. وجه الشبه : إحياء الموتى من النبات والناس .أداة التشبيه :الكاف في كذلك

فالماء هنا يمثل الحدث الفاعل في الصورة حيث يقوم الماء بإخراج النبات الذي يحمل الرزق والغوث للناس بإحياءه للأرض القاحله ليغدو رحمة من الله للناس وآية على رأفته بعباده ويسير الماء في رحاب الأية فيخرج الثمار ويؤسس للعمار فتعود السعادة وفي المقابل تكتمل الصورة الفنية عند النظر للمشبه وهو بعث الناس يوم القيامة حيث رأى الناس أثر الماء الذي يعبر عن قدرة الله كيف أخرج النبات وحول الأرض اليباب إلى أرض عامرة بالخيرات وكأن هذا الجزء من الأية يعكس للناس نعيم الدنيا الفاني لينتهي المشهد بالبعث الذي ينتظرهم في النهاية . وقد عرضت هذه الصورة التشبيهية قضية عقلية وهي قضية البعث في صورة حسية تعرض أمامهم في كل وقت .

(ويبدو أن تكرار هذه الصور الحسية، والإلحاح عليها في التعبير القرآني، يهدف إلى التركيز على فكرة إحياء الموتى، وتقريب صورة البعث من القبور إلى الأذهان، وصورة الأرض الميتة، تقابل صورة الموتى في القبور، فكما أن الله يحيي الأرض بعد موتها، فتنبت الزروع والثمار، كذلك يخرج أجساد الموتى من الأجداث، وهكذا تتّضح حقيقة الحياة بعد الموت، من

[1] – وظيفة الصورة الفنية في القرآن – 80

خلال هذا التصوير الحسي المدرك. وتصوير خلق البشر بالنبات، يرتبط أيضا بهذه الحقيقة الكونية وهي أن الله يحيي ويميت، والحياة والموت في الزروع والنبات، كما في المخلوقات أيضا. قال تعالى: وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً)([1])([2])

ولاتتوقف روعة الصورة الفنية عند بنية التشبيه الذي عمل على تكثيف المعنى وإيجازه ليقوم بدوره الرمزي في إخراج دلالات الماء الرمزية بوصفه تعبيرا غير مباشر عن المعنى فإننا نجد استخدام النص القرآني لألفاظ بعينها قد أسهم في تنوع دلالات الماء في هذه الآية .قفد استخدم النص القرآني كلمة (رحمته) لتوحي بمدى عناية الله بالناس وبمدى الطمأنينة التي تزرعها اللفظة في القلوب والفرحة التي تهيمن على الوجوه عند سماعها ثم تأتي لفظة (الميت) لتوحي بمدى الجدب والقحط والخوف والحاجة إلى الغوث والتمهيد في نفس الوقت لتوضيح أثر الماء ثم أنظر لكلمة (الماء) وكيف أن النص القرآني قد جعلها السبب الرئيسي في تغيير حال الناس فتبدو السعادة العارمة على القلوب وهم يرون الماء يغير وجهة الكون فتنضج الثمار ثم يتوقف المشهد لحظة مع قوله عز وجل (كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى) لتحمل أداةالتشبية مسئولية المقارنة لتصف حالا بحال فيتيقن المشركون من قضية تؤرقهم طالما شككوا فيها ويتذكر المؤمنون .

من المعلوم أن الكلمة لايعرف معناها بمفردها بل لابد من سياق يحدد مضمونها ويكشف عن دلالتها ولاترتبط المفردة القرآنية بسياقها الصغير المذكورة فية بل تتعدى المفردة إلى السياق السابق واللاحق بل بسياق النظم

القرآني ككل وهذا مانجده في تحليلنا لهذه الآية حيث يأتي بعدها

قوله تعالى (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ.)([3])

حيث اختلف المفسرون حول تفسير الآية وربطها بالآية موضوع البحث فقال (أَنَّ هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ بِالْأَرْضِ الْخَيِّرَةِ وَالْأَرْضِ السَّبِخَةِ وَشَبَّهَ نُزُولَ الْقُرْآنِ بِنُزُولِ الْمَطَرِ فَشَبَّهَ الْمُؤْمِنَ بِالْأَرْضِ الْخَيِّرَةِ الَّتِي نَزَلَ عَلَيْهَا الْمَطَرُ فَيَحْصُلُ فِيهَا أَنْوَاعُ الْأَزْهَارِ وَالثِّمَارِ

[1] – سورة نوح– الآية 11

[2] – وظيفة الصورة الفنية في القران – ج1– ص 144

[3] – سورة الأعراف – الآية –58

وَأَمَّا الْأَرْضُ السَّبِخَةِ فَهِيَ وَإِنْ نَزَلَ الْمَطَرُ عَلَيْهَا لَمْ يَحْصُلْ فِيهَا مِنَ النَّبَاتِ إِلَّا النَّزْرُ الْقَلِيلُ فَكَذَلِكَ الرُّوحُ الطَّاهِرَةُ النَّقِيَّةُ عَنْ شَوَائِبَ الْجَهْلِ وَالْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ إِذَا اتَّصَلَ به نور القرآن ظهرت فيه أَنْوَاعٌ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَارِفِ وَالْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ وَالرُّوحُ الْخَبِيثَةُ الْكَدِرَةُ وَإِنِ اتَّصَلَ بِهِ نُورُ الْقُرْآنِ لم يظهر فيه مِنَ الْمَعَارِفِ وَالْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ إِلَّا الْقَلِيلُ.)([1])

واعتمادا على تفسير هذه الآية التي عُدت من باب المثل أو التشبيه التمثيلي فإن الماء يأخذ دلالة مغايرة عن المعنى المعجمي المعهود وكأن دلالة الآية أن الله أنزل من السماء قرآنا يحمل الرحمة والهداية للناس فيحي القلوب الميتة ويزرع فيها الخير ويغرس فيها الهداية وهذه الدلالة الجديدة لاتعني إلغاء الدلالة الأولى وهذا يعكس ما أشرنا إليه من قبل وهو أن الرمز يعرض المعاني المتوارية خلف الألفاظ دون الإخلال بالمعنى المباشر كما يعني أن رمزية الماء في هذه الآية قد اتضحت من خلال تضافر الألفاظ والسياق مع الصورة التشبيهية وأقصد بالسياق هنا السياق العام لنظم القرآن .

وتأكيدا على أن المراد بالماء هنا هو القرآن الكريم فقد تواتر القرآن على وصف الماء بالقرآن كما حمل النص القرآني الماء لمعاني البركة والرحمة والهداية والرزق في كثير من الآيات وهذا ما كشفنا عنه من خلال تناولنا لرمزية المثل المائي في القرآن ولهذا قال الماتريدي (وهو أن الله – عَزَّ وَجَلَّ – جعل هذا القرآن مباركًا، شفاء للخلق على ما وصفه الله تعالى في غير موضع من الكتاب، ووصف الماء الذي ينزل من السماء بالبركة والرحمة، فإذا نزل ذلك الماء المبارك في الأرض الطيبة الجوهر، خرج منها النبات، والأنزال ينتفع بها، وإذا نزل في الأرض السبخة الخبيثة، لم يخرج لخبث أصلها، فعلى ذلك هذا القرآن هو مبارك شفاء، فيسمعه المؤمن، فيتبعه، ويعمل به، والكافر يسمعه ولا يتبعه، ولا يعمل به، فصار مثل المؤمن الذي يسمع هذا القرآن ويتبعه ويعمل بما فيه، كمثل الماء الذي يدخل في الأرض فيخرج منه النبات؛ لطيب جوهرها وأصلها، والكافر مثل الأرض التي لا يخرج منها النبات لخبث أصلها وجوهرها---- فعلى ذلك المؤمن والكافر، ثم حسن عمل هذا وطيبه وقبح عمل الآخر وخبثه إنما يظهر في الآخرة وذلك يوجب البعث لأنهما جميعًا استويا في هذه الدنيا، فدل أن هنالك دارًا أخرى فيها يظهر الطيب من الخبيث) ([2]) ،وكما قلنا قد جاء هذا المثل بعد ذكر

[1] – مفاتيح الغيب– الرازي – ج14–ص291

[2] – تأويلات أهل السنة الماتريدي– ج4 ص466 ، 467

أثر الماء في إحياء الأرض الميته واستخدام الماء في تقريب صورة البعث ؛ لذا قال الزمخشري(وهذا التمثيل واقع على أثر ذكر المطر، وإنزاله بالبلد الميت، وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد كَذلِكَ مثل ذلك التصريف نُصَرِّفُ الْآياتِ نردّدها ونكرّرها لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ نعمة الله وهم المؤمنون، ليفكروا فيها ويعتبروا بها.)([1]) أما عن كيفية إحياء الماء للأموات يوم القيامة في قوله (كذلك نخرج الموتى)فقيل (أَنَّ الْمُرَادَ هُوَ أَنَّهُ تَعَالَى كَمَا يَخْلُقُ النَّبَاتَ بِوَاسِطَةِ إِنْزَالِ الْأَمْطَارِ فَكَذَلِكَ يُحْيِي الْمَوْتَى بِوَاسِطَةِ مَطَرٍ يُنْزِلُهُ عَلَى تِلْكَ الْأَجْسَامِ الرَّمِيمَةِ-- أو أَنَّ التَّشْبِيهَ إِنَّمَا وَقَعَ بِأَصْلِ الْإِحْيَاءِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مَيِّتًا وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ تَعَالَى كَمَا أَحْيَا هَذَا الْبَلَدَ بعد خرابه فانبت فيه الشجرة وَجَعَلَ فِيهِ الثَّمَرَ فَكَذَلِكَ يُحْيِي الْمَوْتَى بَعْدَ أَنْ كَانُوا أَمْوَاتًا-- وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ إِقَامَةُ الدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْبَعْثَ وَالْقِيَامَةَ حَقٌّ)([2]) وهكذا قامت الصورة التشبيهية بملىء فضاء النص القرآني بالإيحاء الذي يُعد سمة من سمات الصورة الفنية كما نلاحظ أن الصورة الفنية لم يتوقف هدفها على رسم مشهد للطبيعة يجذب المتلقي ويثير ذهنه ووجدانه، بل أن الصورة عن طريق معانيها الثانية قد قامت بدورها في التأكيد على وظائفها الدينية المنوطة بها(فتصوير الطبيعة، ليس لمجرد التصوير الفني بل لإبراز الحقائق الدينية من وراء التصوير، فرب الوجود واحد، وقدرته تظهر في المشاهد الطبيعية، كما تظهر في حياة الإنسان، فالحقيقة واحدة، وإن اختلفت الصور والأشكال. ولكنّ البشر يختلفون في إدراك حقيقة الألوهية وآثار الربوبية في الطبيعة والإنسان. تماما كما تختلف الأرض في استقبال خيرات السماء، وما يترتب على ذلك من نتائج وآثار لهذا جاء المثل، عقب تصوير الطبيعة، ليوضح اختلاف الناس في إدراك هذه المشاهد، وما يترتب عليه من نتائج. فهناك في الحياة الإنسانية الطيب والخبيث، والأرض أيضا نوعان: طيبة وخبيثة. فالإنسان الطيب، كالأرض الطيّبة يتأثر بالتوجيه القرآني، ويدرك ما

وراء هذه المشاهد الطبيعية من إله قادر على كل شيء، فيؤمن به، وينمو الإيمان في قلبه، ويظهر على جوارحه سلوكا وعملا وعطاء، وأما الإنسان الخبيث فهو كالأرض الخبيثة، فهو لا يتأثر بالمشاهد، ولا بالمواعظ.)([3])

---

[1] – الكشاف– الزمخشري– ج2– ص112

[2] – مفاتيح الغيب– الرازي –ج14– ص،290–291.

[3] – وظيفة الصورةالفنية في القرآن – ص221

فالصورة المرسومة والتي اعتمدت على بنية التشبيه قد قامت بعرض مشهد متكرر يراه الناس كثيرا ليقيسوا عليه البعث فالقادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إعادة الحياة للأجساد يوم القيامة وإن كانت الصورة قد استخدمت مفردة الماء خاصة فهذا يرجع لما يحمله الماء من دلائل الرحمة والأمل فالعرب كانوا يعيشون في صحراء قاحلة فيمرون على الأرض الجدباء ثم يمرون عليها ثانية فإذا بها أرض خصبة مليئة بالزروع لذا ناسب مجيء الماء في هذه الآية ليانسب حالة تعلقهم واعتمادهم على الماء وقد أشارت الصورة هنا إلى الموت والإحياء وبربط هاتين المفردتين بأثر الماء ومضمون الآية التالية نجد أن الموت يشر إلى موت القلوب التي لاتستجيب للذكر ويكون الإحياء هو إحياء القلوب بعد موتها بالكفر والضلال والذي يقوم بالإحياء هو الماء الذي يماثل القرآن(ولما كانت الموت موتين: حسياً ومعنوياً – كما أشير في الأنعام في آية {إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله} [الأنعام: 36] {أو من كان ميتاً فأحييناه} [الأنعام: 122] كان كأنه قيل: لا فرق في ذلك عندما بين أموات الإيمان وأموات الأبدان، فكما أنا فاوتنا بين جواهر الأراضي بخلق بعضها جيداً وبعضها رديئاً كذلك فاوتنا بين عناصر الأناسي بجعل بعضها طيباً وبعضها خبيثاً، فالجيد العنصر يسهل إيمانه، والخبيث الأصل يعسر إذعانه وتبعد استقامته وإيقانه.)([1])

وبهذا تعانقت مكونات الصورة من بنية تشبيهية ودلالات الألفاظ والسياق في إنتاج الدلالة الرمزية للماء حيث أشارت الصورة إلى تضمنها لأكثر من دلالة وهذا يرجع لاعتماد الصورة على البحث عما وراء الألفاظ والتراكيب .

2– قال تعالى : (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ.) ([2]) تأتي هذه الآية على نفس سياق القرآن في استخدام الماء لعرض قضية البعث على المنكرين لأن إرسال الرياح ونزول الماء ونمو النباتات مشهد حسي متكرر بل أرى أن استخدام القرآن للماء في معظم الصور الفنية التي تتعلق بالبعث هو معرفة الله لمدى تعلق الناس عامة والعرب وقت نزول الآية خاصة بالماء وما يمثله الماء عندهم في كونه سر الحياة والخلاص لذا خاطبهم القرآن بما يحبون ويتعلقون به . إن إنكار المشركين للبعث يستلزم الحجة والدليل من رب العالمين لذا جاءت الآية التي تعد من آيات الحجاج التي يلجأ إليها النص القرآني لإقامة الحجة والدليل على المشركين (هذه آية احتجاج

[1] – نظم الدرر– البقاعي – ج7– ص–423

[2] – سورة فاطر – الآية –9 .

على الكفرة في إنكار البعث من القبور، فدلهم تعالى على المثال الذي يعاينونه وهو سواء مع إحياء الموتى)([1])

ولما أراد الله إثبات قدرته على البعث قدم مثلا حسيا يعاينه الناس جميعا متدرجا في عرضه (واختير من دلائل الوحدانية دلالة تجمع أسباب المطر ليفضي من ذلك إلى تنظير إحياء الأموات بعد أحوال الفناء بآثار ذلك الصنع العجيب وأن الذي خلق وسائل إحياء الأرض قادر على خلق وسائل إحياء الذين ضمنتهم الأرض على سبيل الإدماج .)([2]) ففي إرسال الرياح وسوقها للسحب ثم إنزال الماء وإحياء الأرض الميته هو تذكير لنعم الله على الإنسان كما أن ربط أثر الماء في إحياء الأرض وفي عرض قضية البعث هو تذكير ببداية الخلق .

(ولما كان المراد إرشادهم إلى القدرة على البعث الذي هم به مكذبون، قال رافعاً للمجاز بكل تقدير وموضحاً كل الإيضاح للتصوير: {بعد موتها} ولما أوصل الأمر إلى غايته، زاد في التنبيه على نعمة الإيجاد الثاني بقوله: {كذلك} أي مثل الإحياء لميت النبات {النشور *} حسّاً للأموات، ومعنى للقلوب والنبات)([3]) أما عن استخدام النص القرآني لصيغة المضارع (فتثير) رغم بدء الآية بقوله (أرسل) فهي (لحكاية الحال الماضية استحضارا لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال القدرة والحكمة

وكثيرا ما يفعلون ذلك بفعل فيه نوع تميز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك)([4])

وكأن مشهد إرسال الرياح وتكوين السحاب التي تمهد لسقوط الخير والرزق (الماء) مشهد مستمر ما بقيت الحياة وهذه الصورة المستمرة تكشف في روعة قدرة الله كما أنها تنشر السعادة في قلوب المؤمنين وتكشف كبر وكذب المشركين وعنادهم إن هذاالمشهد المستمر يدفع عقل كل قارىء ومستمع للقرآن أن يتخيل المشهد ويحيا معه فالصورة الفنية التي تقوم على بنية التشبية قدساعدت على نقل الإيحاءات النفسية والدينية إليه عن طريق تحقيق صورة المشبه وتأكيدها .في هذه الصورة التشبيهية نجد أن الصورة تتكون من : المشبه :

---

[1] – المحرر الوجيز – ابن عطيه–ج4ص 430،431

[2] – التحرير والتنوير–ابن عاشور– ج 22–ص267

[3] – نظم الدرر –البقاعي –ج16–ص17

[4] – روح المعاني –الألوسي– ج11ص344

إحياء الموتى يوم القيامة. المشبه به : إحياء الماء للأرض الميته. وجه الشبه : عودة الحياة للنبات والإنسان .

وقد قيل في تخريج وجه الشبه وجوه عدة: (أَحَدُهَا: أَنَّ الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ لَمَّا قَبِلَتِ الْحَيَاةَ اللَّائِقَةَ بِهَا كَذَلِكَ الْأَعْضَاءُ تَقْبَلُ الْحَيَاةَ وَثَانِيهَا: كَمَا أَنَّ الرِّيحَ يَجْمَعُ الْقِطَعَ السَّحَابِيَّةَ كَذَلِكَ يُجْمَعُ بَيْنَ أَجْزَاءِ الْأَعْضَاءِ وَأَبْعَاضِ الْأَشْيَاءِ وَثَالِثُهَا: كَمَا أَنَّا نَسُوقُ الرِّيحَ وَالسَّحَابَ إِلَى الْبَلَدِ الْمَيِّتِ نَسُوقُ الرُّوحَ وَالْحَيَاةَ إِلَى الْبَدَنِ الْمَيِّتِ.)([1]) وقد رأى البعض أن وجه الشبه في إحياء الموتى من باب الحقيقة وليس المجاز (كَذَلِكَ الْأَجْسَادُ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ تعالى بَعْثَهَا وَنَشُورَهَا، أَنْزَلَ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ مَطَرًا يعم الأرض جميعا، ونبتت الأجساد في قبورها كما تنبت الحبة فِي الْأَرْضِ)([2])

وكل هذه الدلالات لمفردة الماء سواء كانت من الناحية الحقيقية أو المجازية لتكشف لنا عن رمزية الماء في النص القرآني عموما حيث تحمل هذه المفردة الكثير من الدلالات والإيحاءات كما أنها معين لاينضب من الرموز حتى ولو على معناها الحقيقي الذي يكشف عن خصوصية تعاطي النص القرآني مع هذه المفردة. والناظر لهذه الصورة الفنية الرائعة التي تعكس مشهدا حسيا جماليا من رياح وسحاب وأمطار ونبات ينمو وأرض تكسوها الخضرة يجد أن مفردة الماء وكونها مشبه به قد قامت عليها الصورة التشبيهية بل وقامت على أثرها تنوع الدلالات والرموز حيث تبدو الصور الفنية من إرسال الرياح وتثيير السحاب ساكنة بعد الشيء حتي يدب الماء في ثنايا الصورة لتبدأ الحركة ورحلة الحياة والعودة فيأتي الماء فينمو النبات سريعا وإن لم يعبر النص القرآني حقيقة عن إخراج النبات بل عبر عنها كنائيا في (فأحيينا) ثم استخدام الفاء التي توحي بسرعة ظهور أثر الماء . وقدتكرر هذا المعنى الحسي في آيات قرآنية عديدة لكن كل آية يبقى لها النظم والأسلوب الخاص وهذا ما نجده في هذه الآية حيث أطنب القرآن في سورة الأعراف فذكر إخراج النبات والثمرات أما في هذه الآية فلم يذكر فيها تفاصيل الإخراج. وقد خرج البعض بمعنى دلالي مغاير حيث جعل الماء لقدرته في إحياء النبات ولتمثيله بالقرآن في أكثر من آية أن الماء هنا هو العناية والرعاية الإلهية التي يختص الله بها عباده الطائعين فقال القشيري : (كذلك إذا أراد إحياء قلب عبد بما يسقيه وينزل عليه من أمطار عنايته، فيرسل أولا رياح الرجاء، ويزعج بها كوامن الإرادة، ثم ينشىء فيها سحب

[1] – مفاتيح الغيب –الرازي –ج26–ص225.

[2] – تفسير القرآن العظيم ابن كثير–ج6–ص474

الاهتياج، ولوعة الانزعاج، ثم يجود بمطر ينبت في القلب أزهار البسط، وأنوار الرّوح، فيطيب لصاحبه العيش إلى أن تتمّ لطائف الأنس.)([1])

3 – قال تعالى : (وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ([2])

جاءت هذه الآية في سياق إثبات الله لقدرته وبديع صنعه حيث تحدث عز وجل في الآية السابقة عن قدرته عن تمهيده سبحانه وتعالى للأرض وجعله للطرق بين الجبال والوديان ثم تحدث في الآية التي تلي آية البحث عن خلقه عز وجل للنبات والحيوان بإختلاف أشكالها وأصنافها وخلقه للأنعام . كل هذه النعم وصنوف الإحسان الإلهي تكشف عن القدرة الإلهية لله عز وجل وبهذا جاءت الآية موضوع البحث بين سياقين سابق ولاحق كلاهما يثبت تمام القدرة لله لهذا جاء عرض قضية البعث في لمحة بسيطة لم تتناول أثر الماء في إخراج النبات والثمار بالتفصيل بخلاف آية الأعراف التي تم دراستها(ولما كان إنزال الماء من العلو في غاية العجب لا سيما إذا كان في وقت دون وقت، وكان إنبات النبات به أعجب، وكان دالاً على البعث ولا بد، وكان مقصود السورة أنه لا بد من ردهم عن عنادهم بأعظم الكفران إلى الإيمان، والخضوع له بغاية الإذعان، قال دالاً على كمال القدرة على ذلك وغيره بالتنبيه على كمال الوصف بالعطف وبإعادة الموصول الدال على الفاعل المذكر بعظمته للتنبيه على أن الإعادة التي هذا دليلها هي سر الوجود، فهي أشرف مما أريد من الآية الماضية بمهد الأرض وسلك السبل ولما كان لا فرق بين جمع الماء للنبات من أعماق الأرض بعد أن كان تراباً من جملة ترابها وإخراجه كما كان رابياً يهتز بالحياة على هيئته وألوانه وما كان من تفاريعه أغصانه بأمر الله وبين جميع الله تعالى لما تفتت من أجساد الآدميين وإخراجه كما كان بروحه وجميع جواهره وأعراضه إلا أن الله قادر بكل اعتبار وفي كل وقت بلا شرط أصلاً، والماء لا قدرة له إلا بتقدير الله تعالى، كان فخراً عظيماً لأن تنتهز الفرصة لتقدير ما هم له منكرون وبه يكفرون من أمر البعث، فقال تعالى إيقاظاً لهم من رقدتهم بعثاً من موت سكرتهم: {كذلك} أي مثل هذا الإخراج العظيم لما تشاهدونه من النبات {تخرجون} من الموت الحسي والمعنوي بأيسر أمر من أمره تعالى وأسهل شأن)([3]) أي أن الله كما وضح لكم إخراج الماء للنبات من الأرض الميتة كذلك سيكون إخراج الناس وبعثهم يوم القيامة وقد سيق هذا المشهد التصويري

[1] – لطائف الإشارات– القشيري –ج3–ص1952–

[2] – سورة الزخرف – الآية –11

[3] – نظم الدرر– البقاعي –ج17–ص 391 ، 392

بهدف تقريب البعث للأفهام وإثارة خيال المتلقي ليقارن بين الإخراجين في الدنيا والآخرة وهذا دلالة على قدرة الله وحكمته وتقديره وهذه الصورة تعد من قبيل تصوير المعاني الذهنية المستعصية على الفهم والأمور الغيبية في صورة مشهد حسي تقع عليه الأعين وقد اختلف حول كيفية الإخراج الذي يعكس وجه الشبه في الصورة فهل هو إخراج الناس بنزول ماء من السماء كما يدل المعنى الحقيقي في الآية؟ أم إن الإخراج يتمثل في تشابه هيئة إخراج النبات مع بعث الناس؟ فقيل (كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ يَعْنِي أَنَّ هَذَا الدَّلِيلَ كَمَا يَدُلُّ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ فَكَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى الْبَعْثِ وَالْقِيَامَةِ وَوَجْهُ التَّشْبِيهِ أَنَّهُ يَجْعَلُهُمْ أَحْيَاءً بَعْدَ الْإِمَاتَةِ كَهَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي أُنْشِرَتْ بَعْدَ مَا كَانَتْ مَيْتَةً، وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ وَجْهُ التَّشْبِيهِ أَنْ يُعِيدَهُمْ وَيُخْرِجَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِمَاءٍ كَالْمَنِيِّ كَمَا تَنْبُتُ الْأَرْضُ بِمَاءِ الْمَطَرِ، وَهَذَا الْوَجْهُ ضَعِيفٌ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي ظَاهِرِ اللَّفْظِ إِلَّا إِثْبَاتُ الْإِعَادَةِ فَقَطْ دُونَ هَذِهِ الزِّيَادَةِ.)([1])

وتعكس هذه الصورة دلالة القدرة الإلهية إذ يمثل البعث إعادة للحياة فبالأولى فإن القادر على إبتداء الخلق تسهل عليه الإعادة لهذا قدمت الصورة التشبيهية الأمر الأصعب وهو هيئة المشبه به ليستقر في الذهن إقرار القدرة لله فيكون الأمر الثاني وهو البعث أسهل في التحقيق في فكر المنكر للبعث .

وقد اختير الماء ليقوم بوظيفة الإحياء وربط المشهدين معا مشهد إخراج النبات ومشهد إخراج الناس وهذا لما في الماء من خصائص لايعلمها إلا الله ولأن الماء هو رمز الحياة والإحياء ولأن الله (جعل في الماء من المعنى واللطف ما يوافق جميع النبات والثمار على اختلاف النبات والثمار واختلاف أجناسها وجواهرها؛ ليعلم أن من قدر على إحياء الأرض بذلك المعنى الذي جعل في الماء موافقته جميع النبات والثمار على اختلاف جواهرها وأجناسها – لا يحتمل أن يعجزه شيء من بعث أو غيره؛ إذ الأعجوبة فيما ذكر من إحياء الأرض بذلك الماء، وموافقة المعنى المجعول في الماء جميع ما ذكر – أعظم وأكثر من البعث؛ لأنه إعادة، وذلك ابتداء، فمن ملك وقدر على ما ذكر من الأشياء فهو على البعث أقدر وأملك؛ ولذلك قال الله تعالى: (كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ) ([2]) والناظر لهذه الصورة الفنية يجد كيف أن القرآن قد راعى اختيار ألفاظه للماشى مع الغرض العام للصورة وفي نفس الوقت توحي بالكثير من المعاني فقد قال عز وجل (بقدر) وهذا تحديد لكيفية ومقدار نزول الماء فهو ينزل بمقدار محدد من أجل أهدافا محددة وإن لم يستخدم النص القرآني هذا اللفظ لربما تصور البعض نزول الماء بلا حساب

[1] – مفاتيح الغيب– الرازي–ج27–ص620

[2] – الماتريدي–ج9–ص 152

مما يؤدي إلى الإضرار بالناس فهذا اللفظ بدقته قد ساعد على تحديد مقدار الحاجة والنفع الذي يترتب على نزول الماء كما أن هذا اللفظ قد ساعد على نشر الطمأنينة في القلوب ليكون تعلق الناس بالماء هو انتظار للخير .

فهذه الصورة تلقي بظلال الراحة والسكينة التي توحي بها ألفاظها كما لايغيب عن الصورة وظيفتها الدينية التي يتعلم منها الإنسان قدرة الله ووحدانيته وحسن تقديره وتدبيرة كما أن العملية التشبيهية التي اعتمدت عليها الصورة الفنية قد عملت على تأكيد المعنى فأصبحت الصورة مليئة بالإيجاز والتكثيف مما ساعد على تعدد الدلالات التي تفيض بها الآية وقد سيقت هذه الصورة التشبيهية كغيرها من الصور موضوع الدراسة بهدف تقريب البعث لدى الناس عامة ومنكريه خاصة وهذا نوع من الاستدلال على الكثير من القضايا لهذا قيل (هو استطراد بالاستدلالِ على ما جاء به النبي (صلى الله عليه وسلم) من إثبات البعث ، بمناسبة الاستدلال على تفرد الله بالإلاهية بدلائل في بعضها دلالة على إمكان البعث وإبطال إحالتهم إياه -- والمقصود من التشبيه إظهار إمكان المشبه) ([1])

4-قال تعالى : (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ)([2])

تناولت سورة ق في مضمونها العام عرض قضية البعث يوم القيامة فقد سبقت الآيات موضوع البحث بحديث عن إنكار المشركين للبعث ثم حديث القرآن عن كمال قدرته ومنته على الناس ثم عودة مرة آخرى للحديث عن البعث ولهذا جاءت الآيات جامعة بين الأثر الحقيقي والمجازي في التعبير عن المقصد العام للنص القرآني . فقد تحدثت الآيات عن تنزيل الماء المبارك الذي يحمل الخير والنماء فأنبتت الحدائق والأشجار والنخيل على سبيل المنة والرزق للعباد وفي هذا السياق توضيح لقدرة الله ومنته على البشر ، ثم عدلت الآيات لتذكير المشركين بالبعث بعدما رأوا أثر الماء في الأرض بإحيائه للأراضي القاحلة وكان هذا المشهد يدلل على القدرة الخارقة المعجزة للبشر وبعد(ظهور الدلائل بصنع الله على إمكان البعث لأن خلق تلك المخلوقات من عدم يدل على أن إعادة بعض الموجودات الضعيفة أمكنُ وأهَونُ ، جيء بما يفيد تقريب البعث بقوله : (كذلك الخروج).([3]) رابطا مشهد خروج النبات وإحياء الأرض بخروج الناس يوم القيامة . وتعد هذه الآية الوحيدة بين آيات موضوع الدراسة التي

---

[1] - التحريروالتنوير- ابن عاشور- ج25-ص171

[2] - سورة ق - الآيات 9 ، 10 ، 11

[3] - التحريروالتنوير - ابن عاشور-ج26-ص294

جمعت بين الأسلوب الحقيقي والأسلوب المجازي .فهذه الآية تفردت (بالجمع بين الإحياء والإنبات من جهة ، وجاء ترتيبهما فيه معكوسا مغايرا للمعهود في عالم الواقع من جهة أخرى ، --- مواءمة للغرض الذي سيقت له الآيات . أي إثبات حقيقة البعث الذي هو – كما – تقدم إعادة الحياة لأجساد الموتى بعد إنباتها ونمائها في باطن الأرض ،ولعل تلك المواءمة هي بعض دلالة التشبيه الواردة في خاتمة السياق .)([1])

من خلال الاطلاع على السياق الخاص بالآيه والسياق العام للسورة وجدنا كيف أن مفردة الماء قد قامت بنشر الدلالات على مستويين مختلفين : مستوى حقيقي اعتمد على إثبات القدرة الإلهية في إخراج الثمار والجنات وهذا هو الهدف العام لإرسال الماء . ثم على المستوى المجازي من خلال قيام الماء بتقريب قضية البعث والإحياءأو لكون الماء حقيقة سينزله الله على أجساد العباد فتنمو وتخرج للحياة وهذا ما أثبتناه في الأيات السابقة عند الحديث عن وجه الشبه .

قد جاءت هذه الصورة الفنية القائمة على بنية التشبيه الذي يسمح بتداعي المعاني والرموز باعتماده على مفردة الماء التي تحمل ضمنيا دلالات مختلفة حسب سياقها أو أثرها المتعارف عليه أو أوصافها التي نوع القرآن في ذكرها.حيث أن لكل وصف دلالة مغايرة . ففي هذه الآية وصف الماء بأنه مبارك وكلمة مبارك تحمل في طياتهاالخير والنماء والزيادة ولعل العلة من وصف الماء بهذه الصفة دون غيرها من الصفات أسباب ترتكز حول معناها فمبارك قيل أنها تعني زيادة غير حسية لاترى ولايعلمها إلا الله (ولمّا كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحسّ، وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر قيل لكلّ ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة: هو مُبَارَكٌ، وفيه بركة، وإلى هذه الزيادة أشير بما روي أنه: «لا ينقص مال من صدقة» لا إلى النقصان المحسوس .)([2])

فعند البعث وإحياء العباد عملية غير محسوسة ولاتدرك بالعين أو العقل ولأن في السياق السابق للآيات تحدث القرآن عن علمه بتناقص أجساد العباد وفنائهم ناسب الوصف بمبارك حيت يتم نمو الأجساد بطريقة غير مرئية وقد يكون وصف الماء بمبارك لآن الآية كما قلنا جمعت بين الإنبات وإحياء الموتى وهذا يتطلب وصفا خاصا غير معروف طبيعته لاعلى ماورد في الآيات موضوع الدراسة التي تم تناولها. وقد يكون وصف الماء بمبارك متناسبا مع

[1] – حول الاعجاز البلاغي في القرآن – حسن طبل– ص– 262

[2] – المفردات –الراغب –ج1 ص 119 ، 120

(السياق الذي يدور حول البعث الذي يحدث بعد نماء الأجساد في باطن الأرض – وبعد جمع رفاتها وذراتها المتناثرة – نماء غير محسوس ، بل غير معلوم إلا للطيف الخبير العليم – سبحانه– بما تنقص الأرض من كل جسد.)([1])

وبهذا جاءت الصورة الفنية محملة بالدلالات التي تطرح على فضاء النص تساؤلات عدة هذه التساؤلات من شأنها الكشف عن رمزية الماء وأثره .

وقد تكونت الصورة التشبيهية من : المشبه : إحياء الموتى وخروجهم يوم القيامة. المشبه به : إحياء الماء للأرض الميته. أداة التشبيه : كذلك . وجه الشبه: عودة الحياة للنبات والإنسان .

والمدقق لهذه الآية يجد أنها قد انفردت عن الآيات التي اعتمدت على بنية التشبيه بخصوصيتين هما: مجيء الماء موصوفاوقد راعت الآية اختيار لفظ مبارك التي توحي بالزيادةوالخير وهذا التحديد الوصفي بالبركة والخير أكسب النص فاعليته كما أتاح بتنوع أثر الماء لأنه ليس كل زيادة في الماء تحمل البركة .الخاصية الثانية : جمعت هذه الآية بين الأسلوب الحقيقي والمجازي في عرض أثر الماء مما يعني تميز هذه الآية عن مثيلاتها .

ومن الملاحظ على الآيات الأربعة السابقة مجيء المشبه متأخرا عن المشبه به وهذا يعطي سمة أسلوبية في تشبيه النص القرآني لبعث الأجساد يوم القيامة بإحياء الماء للأرض الميتة وهذا يسمى انقلابا صوريا وهو أن (يأتي المشبه به مقدماً ومجرداً من أداة التشبيه، التي اتصلت بالمشبه المتأخر .وإن هذا الورود المؤجل للمشبه أدى، إلى أن يحقق المشبه به تآلفاً مع البنية التي سبقت رسم الصورة، على العكس مما سرت عليه العادة. وفضلاً عن ذلك، فإن نظرة فاحصة إلى هذا التشكل، من شأنها أن تقودنا إلى المساحة الرحبة التي شغلها التركيب الصوري للمشبه به، الأمر الذي فسح المجال لتنام صوري واسع النطاق، قياساً بالحيز الضيق الذي شغله المشبه)([2])وهذا التقديم والتأخير بين المشبه والمشبه به السر فيه (أن المشهد أو الصورة إذا عرضت أمام المنكر لأمر الإحياء أو المنزل منزلته وكان عارفا أن السياق سياق يدل على قدرة الله على الإحياء من بعد الموت حالت نفسه بينه وبين تأمل هذا المشهد فيقابله بالرفض والإنكار فإذا عرضت أمامه صورة دون ظهور مقصد

[1] – حول الاعجاز البلاغي في القرآن – حسن طبل – 260

[2] – الاشارة الجمالية في المثل القرآن– عشتار داود –ص 61 ، 62

السياق . فتأملها أقرت نفسه بها ، فجاء التشبيه مقدما المشبه به لأن المتلقي قد أقربه وأذعن له ، وجاء المشبه وهو محل الخلاف فيكون الكلام إن كنت قد أقررت بهذا وأذعنت له فلم لاتقر بالحياة من بعد الموت ؟ وهوممائل لما أقررت به أولا.)([1])وكأن القرآن قد عمد أولا إلى أخذ إقرار واعتراف من المنكر عن طريق تقديم المشبه به فهو أمر ملموس لايسع المنكر تكذيبه ليبطل حجته حين يقدم له المشبه وهو الهدف المقصود من الصورة التشبيهية فيقيس المنكر الغائب على الحاضر .كما أن تقديم المشبه به وتأخير المشبه فيه (تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث وتحقيق للمماثلة بين إخراج النبات وإحياء الموتى لتوضيح منهاج القياس وتقريبه إلى إفهام الناس.)([2])

5- قال تعالى : (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا.)([3])

تأتي هذه في سياق التهديد والوعيد للذين جاءهم الحق(القرآن) لكنهم كذبوا ولم يؤمنوا فتوعدهم الله بعقاب شديد يوم القيامة لكنه عز وجل ترك لهم حرية الإيمان أو الكفر(ولما هدد السامعين بما حاصله: ليختر كل امرىء لنفسه ما يجده غداً عند الله تعالى، اتبع هذا التهديد تفصيلاً لما أعد للفريقين من الوعد والوعيد لفاً ونشراً مشوشاً - بما يليق بهذا الأسلوب المشير إلى أنه لا كفوء له من نون العظمة فقال تعالى: {إنا اعتدنا} أي هيأنا بما لنا من العظمة تهيئة قريبة جداً، وأحضرنا على وجه ضخم شديد تام التقدير {للظالمين} أي لمن لم يؤمن، ولكنه وصف إشارة إلى تعليق الحكم به {ناراً} جعلناها معدة لهم {أحاط بهم} كلهم {سرادقها} أي حائطها الذي يدار حولها كما يدار الحظير حول الخيمة من جميع الجوانب.)([4]) ويكون مضمون الآية أن الله وضح طريق الحق للناس وترك لهم حرية الاختيار وخيرهم بين الإيمان والكفر على سبيل التهديد والاستهزاء بالمشركين متوعدا من يشرك بنار قد أعدها لهم شديد حرها ولهيبها كثيف دخانها فإذا طلبوا الغوث والمعونة جاءتهم ولكن على سبيل العذاب الأشد بماء غليظ يشبه الرصاص المذاب ورديء الزيت ما أن يقترب منهم حتى يشوي وجوههم .

---

[1] - البلاغة الأسلوبية- تصوير الموت في القرآن نموذجا-محمد أبو عامود -ص183 ، 184

[2] - روح المعاني -الألوسي- ج-13ص327

[3] - سورة الكهف- الآية 29

[4] - نظم الدرر- البقاعي-ج12-ص53

إن الصورة الفنية الفنية المعروضة تقشعر لها الأبدان حين يتمثلها المتلقي وهو يرى عاقبة من يكفر فإذا بالنار معدة والدخان يحيط به فيكتم أنفاسه ويشتد لهيب النار وحرارتها فيسرع الكافر طالبا الغوث والنجاة راجيا ماء يبرد النيران التي تستعر في جسده لكن يبب مسعاه إذا يغدو ما يطلبه من أجل النجاة هو نفسه العقاب الذي يترصد له فيقترب من الماء بقلب ظامىء ونفس تتوق للحياة فإذا بالماء يشوي وجه ويزيد ألمه .

أن الصورة التي أمامنا ترسم بألفاظها مشهدا متخيلا لصنف من الناس قد قرر الله تعذيبهم فالنار مطبقة بالمشرك محيطة بهأعدت له منتظرة منذ سنوات عديدة إن العذاب الحسي المصور في هذه الآية يخاله الإنسان واقعا ملموسا حيث عملت الصورة من خلال دلالات ألفاظها على رسم منظر الخوف والهلع الذي يصيب الكافر يوم القيامة كما أن هذه الألفاظ قد بثت لدى المؤمن القلق ولكنه قلق يدعو للإسراع بعيدا عن مصير هؤلاء المشركين وقد قامت الصورة على بنية التشبيه حيث شبهت الماء الذي هو رمز النجاة والرحمة بالرصاص المذاب ورديء الزيت .

إن ثمة توظيف عكسي لدلالة الماء قد أحدثت لدى المشرك الصدمة وخيبة الأمل فالماء هو رمز الحياة والإحياء وهو الغوث والنجاة هذا ما عهده المشرك في الدنيا لذا فهو يبحث عنه في الأخرة يبحث عن طوق النجاة ولنقل يبحث عن نعيم يبعده عن هذه النيران المحدقة به لكنه يفاجأ بدلالة أخرى للماء فإذا بالماء الذي يحمل في ثناياه الرحمة يغدو عذابا يشوي وجهه ويزيده إحراقا ليحمل الماء ثنائية النعيم والعقاب في الدنيا والآخرة ولهذا جاءت الآية التالية عارضة النعيم الذي أعده الله للمؤمنين بغرض تثبيت المؤمنين على الإيمان فقال عز وجل: (أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا)([1])

فثمة مقابلة بين الصورتين فكل صورة ترسم مصير فريق من الناس الأول كفر فأعد الله له النار وأصبح الماء بالنسبه إليه زيادة في العذاب والفريق الثاني آمن فكان الجزاء جنات و أنهارا ليكون الماء شريكا في الصورتين لكنه في الصورة الأولى عقاب وفي الثانية نعيم وسعة ورغد . وهذه الصورة الفنية من قبيل الصورة المتضادة و(هذا اللون من الصور كثير في القرآن الكريم، يهدف إلى تحريك الذهن، وتنشيط الخيال، من خلال هذه الصور المتقابلة

[1] – سورة الكهف – الآية –31

والمتجاوزة في السياق. والتقابل بين الصور متنوّع، فقد تكون الصورتان حاضرتين، وقد تكون الصورة ماضية، تقابلها صورة حاضرة. أو العكس.)([1])

[1] – وظيفة الصورة الفنية في القرآن –88